بسم الله الرحمن الرحيم

٤٥ ـ سورة الجاثية

سميت بها لتضمن آيتها بيان سبب تأخير البعث إلى يوم القيامة . لأجل اجتماع الأمم محاكمة إلى الله تعالى ، وفصله بينهم يوم القيامة . وهى من المطالب الشريفة فى القرآن . وتسمى (سورة الشريعة) لتضمن آيتها وجه نسخ هذه الشريعة ، سائر الشرائع ، وفضلها عليها . وهو أيضا من المطالب العزيزة فيه . قاله المهايمىّ .

وهى مكية . واستثنى بعضهم منها آية[1] (قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ) فإنه قيل إنها مدنية ، نزلت فى شأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما سيأتى ، وآياتها سبع وثلاثون آية .

(١) [٤٥ / الجاثية / ١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (حمٓ)

[٢] (تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)

« حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ » قال المهايمىّ : فعزّته تقتضى إفاضة الحجج التى بها الغلبة على الخصوم . وإفاضة الكمالات التى يعسر الوصول إليها . وأنواعُ السعادات ، وحدة النظر ، والحكمةُ تقتضى محو الشبه وإزالة النقائص وإحراق الشقاوة وتمهيد الفكر . وقد نزله من مقام عزته بمقتضى حكمته ، لتكميل القوة النظرية والعملية ، ليتوسل بها إلى الكمالات الحقيقية ، من الإيمان والإيقان والعقل . وذلك بالنظر إلى أنواع الآيات المتضمنة للحجج ، ورفع الشبه . فمنها آيات الأجسام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ)

[٤] (وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٥] (وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ *وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ » أى مطر . سمى رزقا لأنه سببه « فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » أى عن الله ، ما وعظهم به ودعاهم إليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ، فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ)

« تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ » أى الدالة على كمال قدرته وحكمته وإرادته « نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ » أى بعد آياته ودلائله الباهرة . وتقديمُ اسم الله للمبالغة والتعظيم . كما فى قولك (أعجبنى زيد وكرمه) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

« وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ » أى كذاب يتكلم فى حق الله وصفاته على خلاف الدليل « أَثِيمٍ » أى بترك الاستدلال ، لاسيما إذا لم يترك عن غفلة ، بل مع كونه ،

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)

[٩] (وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ، أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

[١٠] (مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[١١] (هَٰذَا هُدًى ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)

[١٢] (ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » أى لا بالإخبار عنها بالغيب ، بل « تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ » أى على إنكارها « مُسْتَكْبِرًا » أى عن قبولها ، لا يتأثر بها أصلا « كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا » استهانة بها « أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ » أى من بعد انقضاء آجالهم ، عذابها « وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ » أى من الأموال والأولاد « شَيْـًٔا » أى من عذاب الله « وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ » يعنى آلهتهم التى عبدوها ، أو رؤساءهم الذين أطاعوهم فى الكفر واتخذوهم نصراء فى الدنيا « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَٰذَا » أى القرآن « هُدًى » أى بيان ودليل على الحق ، يهدى إلى صراط مستقيم من اتبعه وعمل بما فيه « وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ » أى بتسخيره « وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ » أى باستفادة علم وتجارة وأمتعة غريبة ، وجهاد وهداية وغوص فيه ، لاستخراج لآليه ، وصيد منه « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى نعمة هذا التسخير . فتعبدوه وحده ، وتصرفوا ما أنعم به عليكم ، إلى ما خلقتم له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » أى فى آيات الله وحججه وأدلته . فيعتبرون بها ويتفكرون . قال الهايمىّ : منها أن ربط بعض العالم بالبعض دليل توحيده . وجعل البعض سبب البعض ، دليل حكمته . وجعل الكل مسخراً للإنسان ، دليل كمال جوده . فمن أنكر هذه الآيات ولم يشكر هذه النعم ، استوجب أعظم وجوه الانتقام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

« قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ » أى صدّقوا بالله واتبعوك « يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ » أى لا يخافون بأس الله ونقمه ووقائعه بأعدائه « لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » أى من عملهم . ومنه العفو والتجاوز عن بعض ما يؤذى ويوحش . وقد روى أنها نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد شتمه رجل من غفار ، فهمّ أن يبطش به . فتكون الآية مدنية . قيل : يؤيده ما أورد على كونها مكية ، من أن من أسلم بها كانوا مقهورين فلا يمكنهم الانتصار منهم . والعاجز لا يؤمر بالعفو والصفح . وأجيب بأن المراد أنه يفعل ذلك بينه وبين الله بقلبه ، ليُثاب عليه. مع أن دوام عجز كل أحد منهم غير معلوم. فالصواب أن الآية مكية كالسورة . ومعنى نزولها فى عمر ـ إن صح ـ صدقها على قضيته. والاستشهاد بها لسماحه . كما حققنا المراد من النزول ، غير ما مرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ، وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

«مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ » أى لكونه افتكّها من العذاب «وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا» أى أساء عمله بمعصية ربه، فعلى نفسه جَنَى ، لأنه أوبقها بذلك «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» أى تصيرون . فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ)

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ» أى التوراة «وَٱلْحُكْمَ» أى الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التى لم تنزل بالكتاب «وَٱلنُّبُوَّةَ» أى جعلنا منهم أنبياء ورسلا إلى الخلق «وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ» يعنى المنّ والسلوى «وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ» أى على أهل زمانهم ، بإيتائهم ما لم يؤت غيرهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ، فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

«وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ» أى حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، تأبى الاختلاف، ولكن أبوْا إلا الاختلاف «فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ» أى ظلماً وتعدياً منهم، لطلب الحظوظ العاجلة «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أى بالمؤاخذة والمجازاة. قال ابن كثير: وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم . ولهذا قال جل وعلا :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

«ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ» أى على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين ، الذى أمرْنا به مَن قبلك من رسلنا «فَٱتَّبِعْهَا» أى تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» يعنى المشركين وما هم عليه من الأهواء التى لا حجة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ، وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ)

« إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » أى لن يدفعوا عنك من غضبه وعقابه شيئاً ما، « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » أى أعوان وأنصار على المؤمنين وأهل الطاعة . أو فى التحزّب والتقوّى. ولكن ماذا تغنيهم ولايتهم لبعضهم وقد تخلّت عناية الله ونصرته عنهم ؟ « وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ » أى من اتقاه بعبادته وحده، وخشيته بكفايته من بغى عليه، وكاده بسوء. والأظهر تفسير الآية بآية[1] « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ).

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (هَـٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

[٢١] (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

« هَـٰذَا » أى القرآن « بَصَائِرُ لِلنَّاسِ » أى يبصرون به الحق من الباطل، ويعرفون به سبيل الرشاد. قال الزمخشرىّ : جعل مافيه من معالم الدين والشرائع، بمنزلة البصائر فى القلوب كما جعل روحا وحياة . أى فهو تشبيه بليغ « وَهُدًى » أى من الضلالة « وَرَحْمَةٌ » أى من العذاب لمن آمن وأيقن « لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ » أى يطلبون اليقين « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ » أى اكتسبوا سيئات الأعمال « أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » أى من عدم التفاوت. قال الزمخشرىّ: والمعنى إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتا . لافتراق أحوالهم أحياء حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصى . ومماتا حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم . انتهى .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] .

وزد عليه : حيث عاش هؤلاء على الهدى والعلم بالله وسنن الرشاد وطمأنينة القلب ، وأولئك على الضلال والجهل والعيث بالفساد واضطراب القلب وضيق الصدر ، بعدم معرفة المخرج المشار إليه بآية[1] (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

«وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ » أى بالحكمة والصواب. قال ابن جرير[2]: أى للعدل والحق، لا لما حسب هؤلاء الجاهلون بالله، من التسوية بين الأبرار والفجار. لأنه خلاف العدل والإنصاف « وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ » قال الزمخشرىّ : معطوف على (بالحق) لأن فيه معنى التعليل . أو على معلل محذوف ، تقديره ، خلق الله السموات والأرض ليدل بها على قدرته، ولتجزى كل نفس «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أى فى جزاء أعمالهم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

[٢٤] (وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

« أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ » أى من ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى . فكأنه يعبده . فجعله إلها تشبيه بليغ أو استعارة . قال القاشانىّ : الإله المعبود، ولما أطاعوا الهوى فقد عبدوه وجعلوه إلها . إذ كل مايعبده الإنسان بمحبته وطاعته ، فهو إلهه ولو كان

(١) [٢٠ / طه / ١٢٤] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٤٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

حجرا ! « وَأَضَلَّهُ ٱللَّـهُ عَلَىٰ عِلْمٍ » ، أى عالما بحاله ، من زوال استعداده ، وانقلاب وجهه ، إلى الجهة السفلية . أو مع كون ذلك العابد للهوى عالما بعلم ما يجب عليه فعله فى الدين . على تقدير أن يكون (عَلَىٰ عِلْمٍ) حالا من الضمير المفعول فى (أَضَلَّهُ ٱللَّـهُ) لا من الفاعل . وحينئذ يكون الإخلال لمخالفته علمه بالعمل ، وتخلف القدم عن النظر ، لتشرب قلبه بمحبة النفس وغلبة الهوى . أو على علم منه غير نافع . لـكونه من باب الفضول . ليس فيه إلى الحق سلوك ووصول « وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ » أى بالطرد عن باب الهدى ، والإبعاد عن محل سماع كلام الحق وفهمه ، لـكمال الرَّين وغلظ الحجاب ، فلا يعقل منه شيئاً « وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً » أى عن رؤية حجج الله وآياته « فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّـهِ » أى فمن يوفقه لإصابة الحق بعد إضلال الله إياه «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا» أى ما الحياة أو الحال غير حياتنا هذه التى نحن فيها « نَمُوتُ » أى بالموت البدنىّ الطبيعىّ ، «وَنَحْيَا» أى الحياة الجسمانية الحسية ، لا موت ولا حياة غيرها «وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ» أى مرّ الليالى والأيام وطول العمر « وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » أى : وما يقولون ذلك عن علم ولـكن عن ظن وتخمين . و (ذلك) إشارة إلى نسبة الحوادث إلى الدهر ، أو إلى إنـكار البعث ، أو إلى كليهما . قال الزمخشرىّ : كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، وينـكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله . وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان . وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام[1] (لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر) أى فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر . انتهى .

وقال الخطابىّ ، معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التى تنسبونها إلى الدهر . فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور ، عاد سبه إلى ربه الذى هو فاعلها . وإنما الدهر

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٢٩ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) عن أبى قتادة .

زمان جعل ظرفا لمواقع الأمور . وكان عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر فقالوا (بؤسا للدهر) و (تبا للدهر) . انتهى .

قال ابن كثير : وقد غلط ابن حزم . ومن نحا نحوه من الظاهرية ، فى عدّهم الدهر من الأسماء الحسنى ، أخذاً من هذا الحديث . انتهى .

تنبيه :

فى هذه الآية ردّ على الدهرية ، وهم المعطلة ، بأن متمسكهم ظن وتخمين . لم يشم رائحة اليقين . وماهذا سبيله، فباب القبول فى وجهه مسدود[1] (إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا)

قال الشهرستانىّ فى معطلة العرب : فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفنى . وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد[2] (وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا) إشارة إلى الطبائع المحسوسة فى العالم السفلىّ . وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها . فالجامع هو الطبع ، والمهلك هو الدهر (وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ » فاستدل عليهم بضرورات فكرية ، وآيات فطرية ، فى كم آية وكم سورة فقال تعالى[3] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)[4] (أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقال[5] (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ) وقال[6] (قَالَ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ) وقال[7] (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ) فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق . فإنه قادر على الكمال ، إبداء وإعادة . انتهى .

ولى فى الرد على الدهريين ، وهم الماديون والطبيعيون، كتاب وَسَمْتُه (دلائل التوحيد) فليرجع إليه المريد ، فليس وراءه ، بحمده تعالى ، من مزيد .

(١) [١٠ / يونس / ٣٦] . (٢) [٤٥ / الجاثية / ٢٤] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٤] . (٤) [٧ / الأعراف / ١٨٥] .
(٥) [١٦ / النحل / ٤٨] . (٦) [٤١ / فصلت / ٩] . (٧) [٢ / البقرة / ٢١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ » أى بأن الله باعث خلقه يوم القيامة « مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى انشروهم أحياء ، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا . وإطلاق الحجة على ذلك ، إما حقيقة بناء على زعمهم ، فإنهم ساقوه مساق الحجة ، أو هو مجاز تهكما بهم . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . بمعنى أن لا حجة لهم البتة . وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى قل لهم فى جواب قولهم (وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ): قل الله يحييكم ثم يميتكم ، لا الدهر . لما عرف من وجوب رجوع العالم إلى واجب الوجود ، هو سبب الأسباب ، ومصدر الكائنات . أو قل لهم (فى جواب إنكارهم البعث) : بأن من قدر على الإبداء ، قدر على الإعادة . والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة ، على ما مرّ مرارا.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٧] (وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ، وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى فلا مالك غيره ، ولا معبود سواه « وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ » أى الذين أتوا بالباطل فى أقوالهم وأفعالهم ، وهم عبدة غيره تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٢٩] (هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

[٣٠] (فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ)

[٣١] (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

«وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً » أى باركة، مستوفزة على الركب لاحراك بها . شأن الخائف المنتظر لما يكره. وذلك عند الحساب أوفى الموقف الأول ، وقت البعث قبل الجزاء« كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا » أى اللوح الذى أثبت فيه أعمالها. ويعطى بيمين من كان سعيداً. وشمال من كان شقيا «ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ*هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ» أى يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان . وإنما أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه تعالى ، لأنه أمر الكتبة أن يكتبوا فيها أعمالهم « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ » أى نستكتب الملائكة «مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ » أى ما صلح به حالهم فى المعاد الجسمانى «فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ » أى فى جنته« ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ*وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ أى فيقال لهم «أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى بكسب الآثام ، والكفر بالله ، وعدم التصديق بمعاد ، ولا الإيمان بثواب وعقاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

« وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ » أى : أىّ شيء هى ؟ أى : لانستيقن بها « إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ » أى أنها كائنة وآتية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ)

[٣٤] (وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ)

[٣٥] (ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ، فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

«وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ» أى قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أعمالهم السيئات «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » يعنى الجزاء «وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» أى نترككم فى العذاب ، ترك ما يُنسى ، كما تركتم التأهب له . فـ (نَنسَىٰكُمْ) استعارة أو مجاز مرسل « وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ * ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا» أى خدعتكم حتى آثرتموها على الآخرة وزعمتم أن لا حياة سواها « فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا » أى من النار «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» أى ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه . من (الإعتاب) وهو إزالة العتب ، كناية عن الإرضاء . أو : لاهم يردّون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة ، فما بعد الموت مستعتب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

[٣٧] (وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)

« فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ » أى الثناء الكامل . قال ابن جرير[1] : أى فلله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه . فإياه فاحمدوا أيها الناس . فإن كل ما بكم من نعمة فمنه ، دون ماتعبدون من دونه ، من آلهة ووثن « رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى الاستعلاء ونهاية الترفع والكبر على كل شىء . وغاية العلوّ والعظمة باستغنائه عنه وافتقاره إليه « وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ » أى القوىّ القاهر لكل شىء « ٱلْحَكِيمُ » قال القاشانىّ : أى المرتب لاستعداد كل شىء ، بلطف تدبيره ، المهيىء لقبوله ، لما أراد منه من صفاته ، بدقيق صنعته ، وخفىّ حكمته (لا إله إلا هو رب العالمين) .

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة قبيل ظهر الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة عام ١٣٢٦ بمنزلنا بدمشق الشام . بقلم جامعه جمال الدين القاسمىّ . وهذا آخر الجزء العاشر . ويليه الجزء الحادى عشر . وأوله سورة الأحقاف . والحمد لله وحده .

تم الجزء الرابع عشر . ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الخامس عشر . وفيه تفسير : ٤٦ ـ سورة الأحقاف ، ٤٧ ـ سورة محمد ، ٤٨ ـ سورة الفتح ، ٤٩ ـ سورة الحجرات ، ٥٠ ـ سورة قَ ، ٥١ ـ سورة الذاريات ، ٥٢ ـ سورة الطور ، ٥٣ ـ سورة النجم ، ٥٤ ـ سورة القمر ، ٥٥ ـ سورة الرحمن .

---

(١) انظر الصفحة رقم ١٥٩ من الجزء الخامس والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢٧٣/١٩٧٠